الجامعة الاسلامية العالمية ماليزيا
INTERNATIONAL ISLAMIC UNIVERSITY MALAYSIA
يونيورسيتي إسلام أنتارابنسا ملايسيا

الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا
قسم علوم الوحى والتراث

الفصام بين القيادتين الفكرية والسياسية في الإسلام

(دراسة للعهدين الأموي والعباسي)

إعداد
سباهيتش عمر

بحث تكميلي لنيل درجة ماجستير في معارف الوحى والتراث

DONATED TO THE LIBRARY OF
INTERNATIONAL ISLAMIC UNIVERSITY
BY
سباهيتش عمر
Date Received : 20-6-96

١٩٩٥م

456

INTERNATIONAL ISLAMIC UNIVERSITY
LIBRARY
Copy no: 45079
Date: 20.6.96

t
JC
49
055F
1995

DECLARATION OF AUTHOR'S RIGHTS

The copyright of this thesis belongs to the author under the terms of the Copyright Act, 1987 (Act 332) Due acknowledgement must always be made of the use of any material contained in, or derived from this thesis.

Examination Committee

Signature : ..... Ibrahim Z.
(Supervisor(s))

Name : Dr. Ibrahim M. Zein
DR. IBRAHIM MOHD ZEIN
DEPARTMENT OF ISLAMIC REVEALED KNOWLEDGE
AND HERITAGE

Date : 6/9/95

Signature : ..... Fkarcic
(Second examiner, if any)

Name : DR FIKRET KARCIC
Dept of Islamic Revealed Knowledge
and Heritage

Date : 6/9/95

Signature : ..... Ushama
(Head of Department)

Name : Assoc. Prof. Dr. Thameem Ushama
Head
Department of Islamic Revealed Knowledge
and Heritage
Kulliyyah of Islamic revealed Knowledge and Human Sciences

Date : 7.9.95

Signature : .....
(Dean of Kulliyyah)

Name : DR. SIDEK BABA
Deputy Rector (Student Affairs)
International Islamic University Malaysia
In-Charge of
Kulliyyah of Islamic Revealed Knowledge
and Human Sciences

Date : 7.9.95

إهداء

إلى الأمم الإسلامية التى تدين بدعوة الحق والتوحيد بهدى من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

إلى مراكز الدعوة الإسلامية في كافة أرجاء الدنيا .

إلى كل إنسان مهتم بمعرفة الحق وإزالة الباطل .

إلى أسرتي في البوسنة والهرسك وكل مجاهد فيها .

إلى زوجتي عائشة وبنتي مريم .

إلى كل هؤلاء أهدي هذا الكتاب .

سباميتش عمر

محتويات الكتاب

إهداء ٢

محتويات الكتاب ٣

مقدمة ٤

منهج البحث ٧

الباب الأول

الفصل الأول : مفهوم الفكر والسياسة في الإسلام ٩

الفصل الثاني : دور العلماء والحكام في المجتمع الإسلامي ١٧

الباب الثاني

الفصل الأول : الجذور التاريخية للفصام بين القيادتين الفكرية والسياسية ٣٢

الفصل الثاني : دور الأمويين في تعميق الفصام بين القيادتين الفكرية والسياسية ٥٢

الفصل الثالث : دور العباسيين في تعميق الفصام بين القيادتين الفكرية والسياسية ٦٨

الباب الثالث

الفصل الأول : الجمود والتخلف ٨٧

الفصل الثاني : الصراع بين العقل والنقل ٩٩

خاتمة ١٠٧

مراجع البحث ١١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وبعد :

لقد ظهرت نواة الفصل بين القيادتين الفكرية والسياسية في الإسلام عقب سقوط الخلافة الراشدة . ولكن هذا الفصل ليس مثل الفصل بين الكنيسة والدولة في العالم الغربي . أما الفصل بين الكنيسة والدولة فهو واضح في المفهوم والمجال ، بينما الفصل بين الدين والدولة في الإسلام و إن كان غير واضح في النظرية فإنه واضح على مستوى المؤسسات ، والذي أدى إلى إنعكاس كبير على طرائق عمل الدولة ، وعلى تكون الجماعات ، وعلى البنية الأخلاقية للفرد المسلم عبر التاريخ الإسلامي .

إن معركة صفين (١) غيرت مسيرة المجتمع الإسلامي تغييرا تاما . كانت هذه المعركة نقطة البدء لما نسميه اليوم الفصل بين القيادتين الفكرية والسياسية ، والذي أدى حتما إلى تمهيد الأرض لظهور قوى التدهور والفساد والإنحطاط .

والحقيقة التي لاريب فيها أن المجتمع الإسلامي يواجه أزمة شاملة تغلغلت في جميع زوايا حياتنا عامة وعقلنا وفكرنا خاصة . وكان سنة الله تعالى في الكون أن تصحب كل إنحراف ، بغض النظر عن نوعيته ومداه ، محاولة الإصلاح والتجديد . ولكن لنجاح تلك المحاولات شروط عديدة لا بد من توفرها ، وفي مقدمتها تعريف المشكلة في جميع نواحيها ، وتعيين أسباب ومقدمات سبقت وجودها وأدت إلى ظهورها وساهمت في إزدهارها وفي توليد مشاكل أخرى . وكلما تعمقنا في دراسة أزمة المجتمع الإسلامي كلما رأينا أن جذورها تمتد إلى تلك الفترة التي أسقطت فيها الخلافة الراشدة وأقيم ملك بني أمية . وكلما تعمقنا في دراسة حركات التجديد وبرامج أصحابها الإصلاحية كلما لاحظنا عدم إلتفاتهم الجدي ، في معظم الأحيان ، نحو تلك القضية التي أراها سببا جوهريا لأزمة الأمة الإسلامية عبر العصور وفي وقتنا الراهن .

وأود أن أقوم بهذا المشروع حيث سأحاول - بإذن الله تعالى - أن أقترب من هذه القضية من زاوية جديدة . ستكون دراستي متمركزة على تحليل الأسباب التي أحدثت الفصام ببين القيادتين الفكرية والسياسية ، و سأعالج تدريجيا توسع ظاهرة الفصام في العهدين الأموي والعباسي ، ثم سأقوم بدراسة ما ترتب على ذلك من نتائج سلبية للمجتمع الإسلامي والتي فتحت الباب واسعا أمام قوى التدهور والفساد والتخلف الفكري والمادي . وأريد هنا أن أتبع ترتيبا زمنيا بحيث يتيسر لنا فقه مدى تأثير القدرات المتراكمة التي ولدها الإسلام في صدره الأول ، كما يتيسر لنا فهم ما إختل من تلك القدرات والعناصر المستولية على العقل المسلم وممارساته .

وقد قسمت البحث إلى ثلاثة أبواب :

الباب الأول له فصلان :
الفصل الأول : مفهوم الفكر والسياسة في الإسلام .
الفصل الثاني : مكان العلماء والحكام في المجتمع الإسلامي .

الباب الثاني له ثلاثة فصول :
الفصل الأول : الجذور التاريخية للفصام بين القيادتين الفكرية والسياسية .
الفصل الثاني : دور الأمويين في تعميق الفصام .
الفصل الثالث : دور العباسيين في تعميق الفصام .

الباب الثالث له فصلان :
الفصل الأول : الجمود والتخلف .
الفصل الثاني : الصراع بين العقل والنقل.

ولا يفوتني هنا أن أتقدم بجزيل الشكر للدكتور ابراهيم زين الذي صبر معي وأرشدني نحو تحقيق هذه الغاية الشريفة ، كما أتقدم بخالص الشكر لكل من قدم لي عونا ماديا أو نفسيا في إعداد هذا البحث ، وخاصة لفضيلة الأستاذ الدكتور عبد الخالق كازي ، والدكتور فكرة قرتشتش .
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين .

(١) عن تاريخ المعركة أنظر « علي وبنوه » لطه حسين ، ص ٥٨ وما بعدها ، و « شروط النهضة » لمالك بن نبي ، ص ٤٨ وما بعدها .

منهج البحث

إنني سأنهج ، في علاج هذا الموضوع ، المنهج الذي أراه أكثر ملائمة لعلاجه . وهو منهج تحليلي تاريخي يميل إلى جمع الحقائق التاريخية ودراستها دراسة عميقة ثم محاولة الوصول إلى آثارها السلبية والإيجابية في حاضرنا وبالتالي في مستقبلنا . وما دامت القضية تتعلق بالتاريخ أود أن أتبع ترتيبا زمنيا ، ولا سيما حينما أتحدث عن توسع وتدرج المشكلة . وبعد ما أوضح تبلورها التاريخي وإزدهارها سألجأ إلى مناقشة تستهدف كشف ما ترتب على ذلك من إنحطاط وتخلف مادي وفكري .

الباب الأول

الفصل الأول : مفهوم الفكر والسياسة في الإسلام

الفصل الثاني : دور العلماء والحكام في المجتمع الإسلامي

الفصل الأول

مفهوم الفكر والسياسة في الإسلام

كثير من الألفاظ والمصطلحات العامة يكثر الجدل حولها دون أن يحدد بدقة ما يقصد بها في الواقع التطبيقي ، حتى يصل الأمر أحيانا إلى حد التناقض والتضاد ، مثل ما نقرأه اليوم عن محاولة التوفيق بين الإسلام والإشتراكية لدى بعض الكتاب والتناقض التام بينهما لدى كتاب آخرين . ولو إنطلقت المقارنة من دقة الفهم لكل منهما لما إنتهى الأمر قطعا إلى تلك النتيجة المتهافتة.

ليس هذا قاصرا على المصطلحات التي نتداولها اليوم بل من المصطلحات القديمة ما أثار مناقشات جادة نتيجة عدم الإتفاق على تحديد دقيق لمعنى اللفظ أو المصطلح المعين .

من ذلك مثلا إنكار الإمام الشافعي للإستحسان (١) حتى ينسب إليه القول : (من إستحسن فقد شرع) . (٢)

وكذلك المفهوم الذي أعطاه إبن حزم للقياس وبنى عليه إنكاره له والتشنيع على القائلين به . (٣)

والذي يهمنا هنا هو مصطلح الفكر والسياسة لأن فهمنا الصحيح لقضيتنا يتوقف كثيرا على فقه وإستيعاب معانى كل منهما لغة وإصطلاحا وكذلك مدى الترابط والتداخل بينهما .

أما كلمة الفكر فيقول صاحب لسان العرب :

الفكر : اعمال الخاطر في الشيء . والفكرة : كالفكر وقد فكر في الشيء وافكر فيه وتفكر بمعنى ، ورجل فكير . (٤)

أما ترتيب القاموس المحيط فنجد فيه أن الفكر اعمال النظر في

الشيء . فكر فيه ، وافكر ، وفكر ، وتفكر ، وهو فكير . (٥)
ومن حيث الإصطلاح يعرف الفكر الإسلامي بأنه المبادئ التي تنتظم أحكام الشريعة كما نزل بها الوحي ، والأسلوب الذي اتبع في وضع التكاليف ، وتوجيه الأوامر والنواهي ، والتعامل مع الأعراف والتقاليد والواقع الإجتماعي القائم . (٦)
يبدو هذا المعنى مستبعدا قليلا بالنسبة لموضوعنا هذا ولكنه على كل حال معنى وارد ولا يضر وضعه في الإعتبار . أو يمكننا تعريف الفكر الإسلامي ، بناء على قول الإمام الغزالي ، بأنه كل ما أنتجه المسلمون في المجال النظري ، أو في مجال (البحث عن الحقيقة) .
كما قال الإمام : إنحصر الفكر الذي يبحث عن الحق في أربعة :
١) المتكلمون ،
٢) الفلاسفة ،
٣) الصوفية ،
٤) الباطنية . (٧)
إذن يمكننا القول الآن أن الفكر الإسلامي كل ما أنتجه العقل المسلم منذ مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليوم في المعارف الكونية العامة المتصلة بالله تعالى والعالم والإنسان ، والذي يعبر من إجتهادات العقل المسلم لتفسير تلك المعارف العامة في إطار المبادئ الإسلامية .
لقد فضل الله تعالى الإنسان بقوى الإدراك العقلية على سائر المخلوقات ، وهو يميل طوال حياته إلى التعارف مع العوالم الأخرى المسخرة له . ونتيجة تلك العملية إيجاد رؤية كونية يبلور فيها الإنسان تصوراته ومواقفه من خالقه ونفسه والكون كله . أستطيع أن أقول أن وجود هذه الرأية ضرورة إنسانية إذ أن تقدمه المادي والعقلي يعتمد عليها . ولعل إمكانية الإنسان الهائلة قد أدت إلى إيجاد رأيا عديدة تشهدها المجتمعات الإنسانية والتي في بعض

الأحيان تتعارض وتتصامد في محاولات الإستيلاء على عقول الناس وبالتالي على منصب السلطة العقلية في المجتمع .

ما العلاقة بين الفكر والرأية الكونية ؟

إن الرأية الكونية كما ذكرنا عبارة عن تصورات الإنسان عن خالقه ونفسه والكون كله . إن هذه خطوة نظرية يخطوها الإنسان نحو تعريف مكانه في الكون ، بينما الفكر مرحلة عملية يتطرق بها الإنسان من المعلوم إلى المجهول ليتعرف على سنن الكون الجديدة ويسهل مرحلة قادمة من حياته . الرأية الكونية والفكر إذن لا يترادفان كما لا يفترقان بل يتكاملان ويتداخلان بحيث يكون الأول أساس الثاني يتطرق منها الإنسان المفكر إلى البحث عن سنن الكون ومخلوقاته مع أن صحة نتائجه الفكرية تتوقف على الرأية الكونية ومدى ثبوتها وتناسقها مع العقل السليم والفطرة الإنسانية الصافية .

ولا شك أن الرأية الكونية والفكر يلعبان دورا مهما في المجتمع لأن الحياة العقلية فيه تستند على القدرات المتراكمة الروحية المنتجة بهما ، وإن تلك الحياة تموت وتنقرض بإنهيار الأصول والدعائم التي تعتمد عليها ، وهذا يعني فتح الباب واسعا أمام قوى الفساد والتدهور ، أو بعبارة أخرى نهاية المجتمع .

يعتمد الإنسان في عملية الوصول إلى إيجاد الرأية الكونية والفكر على دعائم مختلفة ويلجأ إلى إستخدام وسائل متباينة ، ولذا نرى بعض الناس يتمسكون بالعقل ولا يعترفون بغيره ، وبعض آخر يتجاوزون آفاق العقل ويتدخلون في مجالات أخرى مثل الإشراق والوحى وإلى غير ذلك . في وسعنا هنا أن نفرق بين الفكر الإسلامي والغربي ونضع فاصلة بينهما لأن الفكر الإسلامي نتيجة ممارسة العقل المسلم المنضبط بضوابط الوحى في حين أن الفكر الغربي يستند على العقل وإمكانياته فقط بإعتباره قادرا على قيادة الإنسان وتدبير إحتياجاته الدنيوية وتقديم حلول لمشكلاته .

الفكر الإسلامي إذن عبارة عن مواقف إجتهادية لعلماء الإسلام ، والإنسان قد يصيب وقد يخطأ ، ولذلك هذا الفكر ليس هو الإسلام نفسه ويجب ألا يخلط به لأن خلطه به يؤدي إلى إقحام الفكر البشري في الوحى الإلهي .

أما مفهوم السياسة في الإسلام فهو من أكثر الأمور تعقيدا وتشابكا عند البحث والدرس ، ولذلك يصعب إدراك معانيه على وجه صحيح . وأسباب هذا التعقيد والتشابك ترجع إلى العوامل الآتية :

أولا : كثرة الدراسات الشرعية المؤطرة بفكر ديني جامد يقوم على أساس السرد التاريخي والحوادث الفردية دون التحليل العلمي والنظرة النقدية للمفاهيم المختلفة .

ثانيا : خشية العلماء من أن يؤدي شرح ونقد المفاهيم الفكرية المختلفة إلى توسع وتحامل عامة الناس والذين ليسوا على دراسة كافية من العلم بأصول الشريعة ، إلى إستخدام أو اللجوء إلى التاويل العقلاني للمفاهيم الدينية ، وهو أمر مرفوض من قبل جميع الفقهاء .

ثالثا : وهو أمر مترتب على العامل الثاني وذلك حين أصبحت المصادر التاريخية المعتمدة على التحليل والنقد أقل من القليل مقارنة بما هو متوفر سواء على هيئة دراسات مطبوعة أو كتب مخطوطة في التراث الفكر الإسلامي .

رابعا : صعوبة الفصل بين ما هو متعلق بالأمور الدينية وما هو متعلق بالأمور الدنيوية في الفكر الإسلامي . فالقواعد الدينية كما تقررها المصادر الأصلية : القرآن ، والسنة ، والإجماع من جهة والسياسة بمفهوم تدبير البلاد والعباد كصورة من صور المعاملات الإنسانية من جهة أخرى متلازمتان لدرجة لايمكن معالجة الثانية بمعزل عن القواعد والمبادئ الدينية حيث لا سياسة إلا ما وافق الشرع . (٨)

إن مصطلح السياسة مشتق من ساس يسوس سياسة وهو سائس ، وقد

يقال ساس الناس أي تولى قيادتهم وإدارة شؤونهم . (كان الخلفاء الراشدون يسوسون الناس بالعدل) . والسياسة سلوك الحكومات والدول ومواقفها تجاه القضايا الداخلية (سياسة داخلية) وتجاه القضايا المتعلقة بالدول الأخرى (سياسة خارجية) . (٩)

يقول صاحب لسان العرب : السياسة هي القيام على الشيء بما يصلحه. فيقال : هو يسوس الدواب - إذا قام عليها وراضها . والوالي يسوس رعيته . وفي الحديث : كان بنو إسرائيل يسوسهم أنبيائهم ، أي يتولون أمورهم . (١٠)

حينما نريد أن نحدد تعريف السياسة من حيث الإصطلاح نلاحظ أن هناك تعريفات عديدة علينا أن نفحصها جميعا لنحقق أمرنا . فالقواميس الغربية تذهب إلى تعريف السياسة بأنها (فن إدارة المجتمعات الإنسانية) ، وآخر يعرفها بأنها مرتبطة بالحكم والإدارة والمجتمع المدني ، وأحيانا تشير إلى الأفعال الإنسانية التي تتعلق بحدوث الصراع حول الصالح العام الهادف إلى مصلحة الجماعات ، والذي يتضمن دائما إستخدام القوة أو النضال في سبيلها . وتذهب بعض المعاجم إلى تعريف السياسة بأنها علم الحكومة وأصول الحكم أو إدارة الشؤون العامة . (١١)

وإن تدبرنا كل هذه الخلافات حول تعريف السياسة وحاولنا أن نطبقها على الواقع نرى أنها مهما تشعبت تلك التعريفات فهي تدور حول فكرة السلطة ، فالبعض يأخذها بمعنى واسع ويدخل في معنى السياسة كل ما يتصل بالسلطة أيا كانت هذه السلطة وعلى أية صورة وجدت ، بينما يقصرها البعض الآخر على أشكال معينة للسلطة وبالذات حينما تأخذ شكل الدولة . فتكون السياسة ، وفقا لهذا المدلول الضيق ، هي كل ما يتصل بالسلطة في الدولة دون غيرها من صور الجماعات البشرية . (١٢)

ونتسائل هنا هل ناقش المفكرون المسلمون موضوع السياسة من نفس

المنظور الغربي أو أنهم بنوا مفهوما إسلاميا خاصا ؟ وهل هناك - تبع لذلك - فكر سياسي إسلامي وما خصائصه وما يمتاز به عن غيره؟

لقد ذكرنا سابقا أن دراسة مفهوم السياسة في الإسلام في غاية الصعوبة وتبريرا لذلك سردنا علل تلك الصعوبة ، ولا بأس أن أضيف أن دراسة الفكر السياسي الإسلامي دراسة معقدة لأن الفلسفات والنظريات السياسية الوضعية التي أنتجها الإنسان منعزلا عن القيم الدينية هي التي تسيطر اليوم على عقول الناس ومنطقهم ، وهذا الإنتاج يتجدد يوما بعد يوم في مجالات واسعة ومتعددة يصعب حصرها . وبجانب هذه العوامل الخارجية هناك عوامل تاريخية داخل المجتمع الإسلامي والتي تساهم في تعقيد دراسة الفكر السياسي الإسلامي . (١٣) وعلى الرغم من كل هذا علينا أن نعترف أن عددا كبيرا من المفكرين المسلمين المبرزين تحدثوا في السياسة ومبادئها بإعتبارها جزأ من الواقع الذي لابد من مواجهته والإتيان بكلمة الإسلام فيه ، وكانت نتيجة تلك الإجتهادات القيمة إنجلاء ونمو الفلسفة السياسية والأدب السياسي والسياسة الشرعية في ساحة الفكر الإسلامي على يد الفقهاء والفلاسفة من المسلمين مثل الماوردي ، إبن تيمية ، الفارابي ، إمام الحرمين وغيرهم .

في تنوع تلك الدراسات علينا أن نراعي الدقة العلمية في تحديد هوية الدراسات السياسية القائمة فعلا على الشريعة الإسلامية ونميز بين السياسة الشرعية التي تعتمد على المصادر الأصلية للشريعة وغيرها من النظريات السياسية الفلسفية . السياسة الشرعية تتميز عن غيرها في ثلاث نقاط جوهرية على الوجه التالي :

الأولى : إنها تعتمد على المصادر الأصلية للشريعة وهي القرآن الكريم والسنة النبوية والإجماع والقياس .

الثانية : إنها لا تمزج بين التراث الإسلامي وغيره من ثقافات غير المسلمين مثل تراث اليونان والفرس والهند على غرار المؤلفات في

الأدب السياسي .

الثالثة : إنها لا تقيم وزنا لعالم ما وراء الطبيعة والدخول في قضايا غير قابلة للتحقيق ... (١٤)

بذلك تتبلور لنا هوية السياسة الشرعية حيث لا تتجاوز موضوعاتها إطار الشريعة ، ومن ثم لا يستقل العقل عن النقل في محاولة فهم وتحليل مشكلات إجتماعية - سياسية - وفي وضع حلول مناسبة لها لما في ذلك تحقيق مصالح الأفراد والمجتمع . هذا التلازم بين العقل والنقل في الأمور السياسية على وجه عام يلاحظه عبد الرحمن الإيجي ونراه يركز عليه في عملية تولية الخليفة على وجه خاص ويقول : « ليس ثمة مانع يقضي من إقامة الخلافة على أساس من الفكر العقلي ، وذلك لحياطة القوانين وحماية الأفراد ، ومن الدليل الشرعي ، وذلك تأييدا لمقتضى العقل ، فيكون العقل والشرع متوافقين على إيجاب تولية الخليفة . » (١٥)

لقد حدد الإسلام المبادئ العامة التي تحكم جميع الأمور المتعلقة بالحياة الدنيا ، وبناء على تلك المبادء يتطرق المسلمون إلى تدبر واقعهم وحل مشكلاتهم وأزماتهم . لذلك يكون الفكر الإسلامي عامة والنظريات السياسية خاصة عبارة عن إجتهادات العقل المسلم لتفسير الظواهر والظروف المترتبة على تطور المجتمع الإسلامي السريع . وهذه الإجتهادات - تبع لذلك - خاضعة لكل أنواع النقص ومن ثم في حاجة دائمة إلى النظر والتنظيم . كل محاولات التقديس والجمود الفكري يؤدي إلى خلاف ومناقضة إرادة الله تعالى وخلاف سننه في الشريعة والكون . يقول الدكتور القرضاوي في هذا الصدد : « ومن مزايا التشريع الإسلامي أنه يجمع بين الثبات والمرونة . فالثبات في الأصول والأهداف ، والمرونة في الفروع والوسائل . فهو بمرونته يستطيع أن يتكيف ويواجه التطور ... وبثبات أصوله وأهدافه يستعصى على الذوبان والخضوع لكل تغيير . إن مهمة هذا التشريع أن يصوب

الخطأ... وضع للمجتمع ليرقى به ويخضع ظروفه وأوضاعه لهدايته وتوجيهه . فكلمة هذا التشريع هي العليا لأنها كلمة الله . ليس معنى هذا أن الناس مشلولون أمام هذا التشريع كلا ، فإن الإجتهاد في فهم نصوصه والإستنباط منها وتفاوت درجات هذه النصوص في ثبوتها ودلالتها من حيث القطعية والظنية ، يعطى فسحة ، أي فسحة لإجتهاد المجتهدين . والإجتهاد في إستنباط الأحكام لما لا نص فيه عن طريق القياس الصحيح أو إعتبار المصلحة المرسلة ، والإستحسان أو غير ذلك من الأدلة التي تختلف في تقديرها آراء الفقهاء بإختلاف مشاربهم ومدارسهم . » (١٦)

وقد إنتهى حديثنا عن مفهوم الفكر والسياسة في الإسلام وسنتعرض الآن - بإذن الله تعالى - لمناقشة دور ومكان العلماء والحكام في الإسلام والمجتمع الإسلامي .

الفصل الثاني

دور العلماء والحكام في المجتمع الإسلامي

الدين في الإسلام هو النظام العام والقانون الشامل لأمور الحياة كلها ومناهج السلوك للإنسان التي أوحى بها الله عز وجل إلى نبيه صلى الله عليه وسلم وأمره بتبليغها إلى الناس كافة . (١٧) وعلى هذا كان الإسلام عقيدة وشريعة ومنهجا. قد إشتمل على كافة مجالات حياة الإنسان ولما يترك للعقل مجالا واحدا يتخبط في تنظيم أموره منعزلا عن الوحى وضوابطه . هذا لأن العقول وقدراتها متفاوتة والتدخل فيما لا يطاق إكتشافه والتعرف به يؤدي إلى الفوضى والفساد العقليين . ولعل أكثر أدلتنا إقناعا على ذلك فشل الإنسان المغامر عبر التاريخ في إيجاد التصورات الكاملة الموحدة عن الخالق والكون والحياة حيث أن أقواله ونظرياته تتناقض وتتضارب .

أما العقيدة الإسلامية فهي التصور الكامل الموحد لأمر الكون والحياة والذي يعرف به العبد ربا واحدا للعالمين فيتخذه إلها ويجعل حياته وقفا على طاعته وعبادته كما تتعبد له سائر العوالم . أما الشريعة ومنهج الحياة فهي طريق العابد الذي يسلكه إلى ربه لايرتد عنه ولا يخالف إلى طريق غيره ، وما ذلك إلا لكون الشريعة هي المنهج العملي الذي يصدق العقيدة ويحقق معنى العبادة لأن الإيمان ليس بالتحلى ولا بالتمنى ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل . لذا جائت شريعة الإسلام شاملة لجميع شؤون الحياة وسلوك الإنسان محققة ما ينفعهم في حياتهم ويحفظهم من الفساد والفوضى في دنياهم .

إن الله عز وجل أرسل رسوله بالهدى رحمة للعالمين ، والنبي صلى الله

عليه وسلم مبلغ ومذكر وليس مهيمنا ومسيطرا، قال الله تعالى: " فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر " (سورة الغاشية ٢١ ـ ٢٢) . لقد أراد الله تعالى أن يحرر المؤمنين من كل رق إلا العبودية لله وحده، وأن يغرس في قلوبهم في مرحلة مبكرة من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فكرة تجريد قيم الدين من التجسيد في الأشخاص والأشياء، كما يرفض رفضا مطلقا الجمود والتحديد في الأزمنة والأمكنة، وبالتالي نقول أن الإسلام دين الإجتهاد وليس دين التقليد والتجمد، والإسلام دين يحث الإنسان على الرقاء الروحي والتطور المادي ولكن في إطار الشريعة. وهذا التجريد لقيم الدين وتعاليمه سمة أصلية في الإسلام وأي إخلال بها إنما هو إبتداع في الدين وعبث من صنع البشر، تحركه النزعات والأهواء، وأحلام السلطان الزمني أوالروحي.(١٩)

وهكذا أعطى الإسلام للإنسانية قاعدة لتجديد حياتها الروحية والمدنية ولا سيما الحضارية لقرون عديدة، ولا يزال يشكل حتى اليوم نبعا لإستمداد الثقة و القوة لمواجهة الشروط الصعبة والمعقدة لبناء النظم المدنية. وربما كانت أهم النتائج وأكثرها حسما على الإطلاق في ثورة الإسلام رؤية الله كسلطة عليا ولانهائية، والمقر الحقيقي لكل المثل العليا، ومن ثم حرمان الحكومات القوة إلى الأبد من إمكانية بناء الشرعية، مما يعني تحويل مركز التماهي الجماعي من الإمبرطور والدولة نحو الجماعة والفكرة والعقيدة. وهكذا كانت مملكة الله وسلطته، مملكة الإنسان المتوحد بالله، هي أنضا مملكة الجماعة كمفهوم سياسي، تأليفي وتوحيدي، في مقابل مملكة القوة والدولة ـ القوة .(٢٠) ولذلك عبارة «الله أكبر» هي التي ستكون شعار المسلمين منذ البداية وحتى النهاية، في الحرب والسلم، والتمرد على الحاكم، وعنل الإحسان، تعبيرا لهذه الروح الكامنة في رسالة التوحيد الإلهية. فهي تعني ببساطة أنه لا سلطة يمكن أن ترتفع على سلطة الله، ولا

سلطان حقيقي لأحد على أحد، ولا أعتراف بسلطة ألا لله.(٢١)
نعم إن السلطة العليا تخص الله تعالى فقط، ولا يجوز للإنسان أيا كان أن يدعي بناء شرعيتها. أما النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقد كان بشرا ورسولا، ولم يطلب منه الله تعالى أن يحكم الآخرين (بالمعنى الذي كان معروفا في ذاك الوقت) وينتزع أراضيهم وأقواتهم ويقتلهم ويبيد نسلهم، ولكنه طلب منه الرحمة وتبليغ الرسالة والمعاملة الحسنة والتقوى والعدل والإحسان والصدقة ومخافة الله. فكونه صلى الله عليه وسلم رسولا يدل على علاقته الوثيقة بالأفق الأعلي إلا أنه كان فقط مبلغا ومنذرا ومذكرا في حين أن كونه بشرا يدل على أنه وإن كان على أعلى الدرجات شرفا من الناس عند الله تعالى فإنه لا يختص بصفة القداسة إذ أنها من صفات الله تعالى فقط وإدعاء الإنسان لها يؤدي إلى الشرك والإسلام جاء ليحررالإنسان من قيوده. كان النبي إذن رسولا إختاره الله تعالى ليبلغ ما أنزل إليه وفي نفس الوقت كان بشرا والبشر قد يصيب وقد يخطأ وبالتالي عصمته لم تكن مطلقة، إنما هي كانت ترتبط بالوحي ولم تتجاوز حدود الرسالة. لذلك نراه يستشير المسلمين في أمورهم. وهو الذي إنهاز إلى رأي أبي بكر الصديق في مصير أسرى بدر، معارضا بذلك رأي عمر بن الخطاب ثم نزل القرآن مؤيدا لرأي عمر. وهو الذي إنتصر في غزوات وإنهزم في أحد وحنين، وهو الذي عاتبه الله تعالى لأنه " عبس وتولى، إذ جاءه الأعمى " ، وهو الذي لم يحالفه التوفيق عندما نصح المسلمين في قصة تلقيح النخل، وعندما عادوا إليه يخبرونه بما أصاب النخل من جراء تلك النصيحة، قال لهم بوضوح شديد: أنتم أعلم بشؤون دنياكم.(٢٢)
لقد نجح النبي صلى الله عليه وسلم في إخراج النموذج الرسالي في كيفية التوفيق بين الدين والدنيا، وكيفية قيادة الأمة والتعامل مع الرعية. إن إنتقاله إلى الرفيق الأعلى قد أوجد فراغا واسعا في

المجتمع الإسلامي لدرجة أن بعض أصحابه ما إستطاعوا تصديق وقبول الخبر عن وفاته. ولتواصل الأمة حياتها في السعادة الحقة والرفاهية والأمن والعزة كان يجب على المسلمين أن يسدوا ذلك الفراغ بإختيار من سيتولى منصب الخلافة، أي قيادة الأمة الإسلامية بنفس المسلك الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يسلكه. عن ضرورة الإمام أوالخليفة يتحدث العلماء المسلمون مثل إبن تيمية في كتابه " السياسة الشرعية " حيث يقول أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالإجماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الإجتماع من رأس... فالواجب إتخاذ الإمارة دينا وقربة يتقرب بها إلى الله، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات، وأنما يفسد فيها حال أكثر الناس لأبتغاء الرئاسة أو المال بها.(٢٣)

وفي ذلك يقول إبن حزم أن جميع أهل السنة وجميع المرجئة وجميع الشيعة وجميع الخوارج قد إتفقوا على وجوب الإمام، وأن الأمة واجب عليها الإنقياد لإمام عادل يقيم فيهم أحكام الله ويسوسهم بأحكام الشريعة التي أتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم.(٢٤)

وكذلك نرى إبن خلدون يعتقد أن إختلاف الصحابة على الخلافة كان على الشخص الذي يملأ الوظيفة لا على وجوب الخلافة وفرضيتها ووجوب إقامتها.(٢٥)

فالخلافة رئاسة عامة في أمور الدنيا أي لإقامة الحياة على نهج الإسلام. فالخليفة يحرس الدين بتنفيذ أحكامه ورعاية المسلمين على أساسه ويستمد سلطانه مت مبايعة الأمة له، وإنابتهم إياه على كتاب الله و سنة رسوله فإن خرج عن مقتضى هذه النيابة خرج عن مقتضى الخلافة وكان حقا على الأمة عزله.(٢٦) إذن من أعلى واجبات الإمام نحو رعيته نشر الدعوة وإقامة ميزان العدل وحماية الدين من الإعتداء والبدع. وإذا أصدر أمرا فيه مخالفة لنص شرعي فليس على

الأمة طاعته في ذلك الأمر. ويقول الماوردي أن الإمام ملزم بعشرة أمور، وهي كالتالي:

أولا: حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة، فإن نجم مبتدع أو زاغ ذو شبهة عنه أوضح له الحجة وبين له الصواب وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود، ليبكون الدين محروسا من خلل والأمة ممنوعة من زلل.

ثانيا: تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعم النصفة، فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم.

ثالثا:حماية البيشة والذب عن الحريم ليتصرف الناس في المعايش وينتشروا في الأسفار آمنين من تغرير بنفس أو مال.

رابعا: إقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الإنتهاك وتحفظ حقوق عباده من إتلاف وإستهلاك.

خامسا: تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا يظفر الأعداء بغرة ينتهكون فيها محرما أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دما.

سادسا: جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة ليقام بحق الله تعالى في إظهاره على الدين كله.

سابعا: جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصا وأجتهاد من غير خوف ولا عسف.

ثامنا: تقدير العطايا وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقدير ودفعة في وقت لاتقديم فيه ولا تأخير.

تاسعا: أستكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوض إليهم من الأعمال وتكله إليهم من الأموال، لتكون الأعمال بالكفائة مضبوطة ووالأموال بالأمناء محفوظة.

عاشرا: أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال، لينهض بسياية الأمة وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلا بلذة أو عبادة،